بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة التحقيق

١ ـ مؤلف الكتاب

لعل أقدم مصدر أشار إلى الرقام البصري هو كتاب «طبقات النحويين واللغويين» لأبي بكر الزبيدي الذي كان معاصراً للرقام، أو متأخراً عنه قليلاً.

وقد ذكر الزبيدي اسم المؤلف وكنيته ولقبه وبلده، فهو «أبو الحسن محمد بن محمد بن عمران البصري الرقام»(١). وجعله في رأس الطبقة السابعة من «اللغويين البصريين» الذين كان جلهم من أصحاب ابن دريد المتوفى سنة ٣٢١ هـ. وكان من هؤلاء الأصحاب في الطبقة السابعة لدى الزبيدي أبو سعيد السيرافي وأبو علي القالي وإسحاق بن الجنيد وعلي بن أحمد الدرديري.

وأما القفطي في إنباه الرواة فإنه لم يزد على ما قرره الزبيدي إلا وصفه الرقام البصري بأنه (٢) «اللغوي الراوية» وأنه (٢) «صاحب أبي بكر بن دريد، أخذ عنه وأكثر».

ثم غبر زمان طويل كثرت فيه كتب الطبقات والتراجم، وتوافقت على

(١) طبقات الزبيدي ص ٢٠٢

(٢) إنباه الرواة ٣/٢١٣

تجاهل الرقام البصري إلى أن جاء السيوطي، فأفادنا في بغية الوعاة بما نقله عن مصدر لياقوت لم يذكره، وما هو بمعجم الأدباء كما قد يتبادر إلى الذهن، وذلك قوله: (٣) «قال ياقوت: أحد أصحاب ابن دريد القيّمين بالعلم والفهم».

وقد تردد اسم الرقام البصري في كتابه «العفو والاعتذار» أكثر من مرة، سواء بكنيته فقط (٤) «قال أبو الحسن» أو اسمه وبلده (٥) «قال الشيخ أبو الحسن محمد بن محمد بن عمران البصري» ولكنه لم يذكر أبداً بلقبه «الرقام البصري»، وإنما ذكرت نسبة انفردت بها مخطوطة الكتاب، وهي أنه (٦) «البصري العبدي».

ولعل نسبة المؤلف «العبدي» هي نسبة إلى قبيلة عبدالقيس، ولكننا لا نعلم أهو عبدي صليبة أم ولاء.

كذلك نتساءل عن معنى لقبه «الرقام» أهو من «رقم الثوب» بمعنى توشيته، فيكون الرقام بمعنى الوشاء، أم هو من «الرقم» بمعنى الكتابة، فيكون الرقام هو الكاتب، أم هو من «الرقم» بمعنى الختم، أم من «الترقيم» وهو علامة لأهل ديوان الخراج، فيكون الرجل من كتاب الخراج.

---

(٣) بغية الوعاة ٩٩

(٤) انظر من الكتاب ص ٩٤، ١٠٤، ١١٢، ٢٨٩

(٥) انظر من الكتاب ص ٢٧

(٦) انظر من الكتاب ص ١٧٣

وخلاصة ما تقدم في كتب التراجم أن الرقام البصري كان من اللغويين البصريين، وكان راوية للأخبار والأشعار، وقد أكثر من ملازمة شيخه ابن دريد حتى قيل إنه «صاحب ابن دريد» بل هو من «أصحابه القيمين بالعلم والفهم» وكان يكثر من الأخذ عن أستاذه الكبير حتى عرف بذلك واشتهر.

على أن دراسة أسانيد الكتاب تدل على أن الرقام البصري أخذ عن شيوخ آخرين، أشهرهم أبو خليفة الفضل بن الحباب الجمحي (٧)، راوية محمد بن سلام الجمحي صاحب طبقات فحول الشعراء، وأبو عمران بن الجراح (٨) الذي يروي عن الإمام ثعلب، وأبو محمد بن حمدون النديم (٩)، الذي يروي عن حماد بن إسحاق الموصلي عن أبيه، وابن زكويه (١٠)، الذي يروي عن الزبير بن بكار، وأحمد بن عبدالعزيز الجوهري (١١) الذي يروي عن الأخباري عمر بن شبة.

٢ ـ الكتاب (مصادره ومنهجه وقيمته)

أ ـ مصادر الكتاب:

لم يذكر الرقام البصري في تضاعيف مؤلفه أي كتاب، مع أنه عاش في زمن كثرت فيه الكتب والرسائل المصنفة. ويبدو أنه آثر طريقة شيوخه في تلقي العلم بالرواية، وفي تهجين من يعدل عنها إلى «أن (ينقل) من صحيفة، أو

(٧) ص ١٠٨، ٢٣٧: «حدثنا أبو خليفة قال: حدثنا محمد بن سلام» . وفي ص ٤٤٧ «حدثنا أبوخليفة الفضل بن الحباب الجمحي .»

(٨) ص ١١٤: «حدثني أبو عمران بن الجراح عن أبي العباس ثعلب»

(٩) ص ٢٥٢، ٢٦١ : «حدثني أبو محمدبن حمدون النديم قال:حدثنا حماد بن إسحاق الموصلي عن أبيه ..))

(١٠) ص ٢٠٧ :«حدثنا ابن زكويه، قال: حدثنا الزبير بن بكار عن عمه» .

(١١) ص ٧٣ : «حدثنا أحمد بن عبد العزيز الجوهري ، قال :حدثنا عمر بن شبة» .

يروي عن صحفي»(١٢). وإنما كان مصدر كتابه ما يرويه عن شيوخه بالسند الكامل المتصل.

فإذا نظرنا في حلقات الإسناد رأينا فيها مشاهير العلماء والأدباء والأخباريين والرواة، وعلى رأسهم الأصمعي وأبو عبيدة والشعبي والمبرد وثعلب، والسجستاني والرياشي وعمر بن شبة والزبير بن بكار وابن سلام الجمحي والمدائني والهيثم بن عدي.

على أن معظم ما يرويه في كتابه هو عن أبي حاتم السجستاني(١٣) وعمر ابن شبة(١٤)، فأما روايته عن أبي حاتم فهي في الأعم الغالب عن طريق والده، حتى ليبدو لنا والده تلميذاً من تلاميذ السجستاني الملازمين لحلقته، وربما نقل رواية أبي حاتم عن أستاذه ابن دريد. وأما روايته لعمر بن شبة فهي عن طريق أحمد بن عبدالعزيز الجوهري.

وربما روىٰ الرقام البصري بعض الأخبار غفلاً دون إسناد، وذلك بصيغة البناء للمجهول: «ويروىٰ»(١٥).. ولكن هذه الأخبار قليلة جداً، ولا تقدح في

---

(١٢) انظر طبقات فحول الشعراء ص ٤

(١٣) انظر على سبيل المثال : ص ٥٦ ، ١٣٥، ١٣٨، ١٦٩، ١٧٣، ١٨٢، ٢٢٦. ٢٣١، ٢٤١.

(١٤) انظر على سبيل المثال: ص ٧٣، ٧٧، ٨٠، ٨٣، ٨٤، ٩١، ١١٧، ١٣٢. ١٥٢، ١٨٤، ١٩٨، ٢٠٩، ٢٢٤، ٢٤٤، ٢٧٢، ٣٠٥.

(١٥) انظر : ص ٩٣، ١٣٤، ١٥٤

توثيق مصادر هذا الكتاب الذي وصف صاحبه ـ كما تقدم ـ بأنه «من القيمين بالعلم والفهم».

ب ـ منهج الكتاب:

إن عنوان الكتاب «العفو والاعتذار» يحدد موضوعه تحديداً دقيقاً. وقد خص الرقام البصري الباب الأول من كتابه ببيان معنى «العفو والاعتذار»، وأفاض في هذا الباب الذي جعله عنواناً لكتابه، فجاء بمثابة المقدمة لهذا الكتاب الذي توالت أبوابه في جزأين كما يلي:

١ ـ باب العفو والاعتذار.
٢ ـ باب تورية الملوك عن ذنوب ذوي الجنايات محبة للعفو عنها.
٣ ـ باب العفو عن ذوي الجنايات استصلاحاً لهم ومداراة لعشائرهم.
٤ ـ باب تلطف الجناة في الحيلة لطلب العفو.
٥ ـ باب خطأ المنطق بحضرة الملوك ومن عفي عنه.
٦ ـ باب العفو عن الهراب والمنفيين وردهم إلى أوطانهم.
٧ ـ باب العفو عن ذوي الجرائم بالشفاعات.
٨ ـ باب من هرب من ملك مخافة أن يقتله، ثم أتاه مقراً بذنبه فعفا عنه.
٩ ـ باب تكرم الأشراف في العفو عن الأسرى وغيرهم من ذوي الجنايات.
١٠ ـ باب العفو عمن نوي قتله اضطراراً.

وهو يحشد في كل باب جملة من الأخبار الداخلة في موضوعه، يدعمها ـ كما

قدمنا ـ بالأسانيد المتصلة، ونادراً ما يسوقها غفلاً منها. وتتفاوت هذه الأخبار في الطول والقصر، حتى يبلغ بعضها عدة صفحات.

ويسوق ضمن هذه الأخبار كثيراً من القصائد والمقطعات الشعرية، إذ كان الجناة يعلمون أنهم يثيرون بالشعر ما لا يثيرون بالنثر من أريحية المتسلط واهتزازه للعفو عنهم.

ولا يملك قارئ الكتاب إلا أن يعجب بذهنية الرقام البصري، التي تبدو في تخصيص هذا الكتاب المطول بموضوع معين، بينما كانت كتب الأخبار في عصره، تجمع بين الموضوعات المتباينة دونما تنسيق أو تخصيص. وتبدو ذهنية المؤلف في دقة التسمية «العفو والاعتذار» وإن كان الحرص على الإيقاع هو الذي دفعه إلى تقديم «العفو» على «الاعتذار» على ما في ذلك من مباينة للواقع، إذ أن الاعتذار يتقدم على العفو تقدم السبب على النتيجة.

كذلك لابد أن نشيد بدقة الرقام في تقسيم الكتاب ذي الموضوع الواحد إلى عشرة أبواب، لا يسهل على من لا يملك ذهنية تنظيمية تحليلية أن يأتي بها، أو يقيم الحواجز الفاصلة بينها، مع أنها لا تخرج عن موضوع واحد هو«العفو والاعتذار».

ولعل أبرز ما يميز منهج هذا الكتاب هو قدرة الرقام على مقاومة آفة الاستطراد التي سيطرت على كتاب عصره ومن قبلهم، حتى أصبحت طريقة مقصودة، وحتى صار يصح أن نقول في معظم الكتاب آنذاك ما قاله

المستشرق كارادیفو من أن «الموضوع عند الجاحظ ليس إلا وسيلة للاستطراد»(١٦).

أما صاحبنا الرقام فإنه يتحاشى الانزلاق في الاستطراد، أو الخروج عن الموضوع رغم توافر الدواعي، ومن ذلك مثلاً أنه يورد في باب «تورية الملوك عن ذنوب ذوي الجنايات محبة للعفو عنها» موقف معاوية بن أبي سفيان (رضي الله عنه) من تشبيب عبدالرحمن بن حسان بن ثابت بابنته رملة، ثم يقول(١٧): «ويقال: إن معاوية إنما وجه تشبيب عبدالرحمن بن حسان برملة إلى أجمل جهاته اتباعاً لمذهب عمر ـ رضي الله عنه ـ حين صرف هجاء النجاشي وهجاء الحطيئة للزبرقان إلى أحسن وجوهه إيثاراً للعفو». وهنا يكتفي الرقام البصري بذكر توجيه عمر (رضي الله عنه) لهجاء النجاشي والزبرقان بقدر محدود، لا يزيد على تبيان وجه التشابه والمتابعة بين الموقفين ليقول(١٨): «وخبر الزبرقان والحطيئة قد كتبته في باب العفو عن جرائم الهاجين للأشراف مستقصىً».

ومن ذلك أيضا أنه يتحدث في باب «تكرم الأشراف في العفو عن الأسرى وغيرهم من ذوي الجنايات» عن خبر عفو عمرو بن الزبان عن أسيره كثيف بن حيي(١٩)، حتى إذا أدرك غايته من استيفاء موضع التمثيل قال(٢٠): «وهذا في حديث طويل، ليس هذا موضعه وإنما أخذت من الخبر معنى التكرم في العفو».

---

(١٦) كتاب «مفكرو الاسلام» لكارادیفو - ص ٧٨

(١٧) انظر ص ٧٠

(١٨) انظر ص ٧٣

(١٩) انظر ص٥٢٠

(٢٠) انظر ص ٥٢٢

وعندما يتحدث عن خبر عفو عبدالملك بن مروان عن ابن الرقيات، ويجد نفسه مدفوعاً إلى إيراد خبرين عن أسباب حنق عبدالملك على الشاعر، فإنه ما يلبث أن يعتذر عن استطراده بقوله(٢١): «وإنما ذكرت هذين الخبرين، وليسا من باب العفو والاعتذار لأخبر عن الأسباب التي كان عبدالملك بن مروان لها متغيظاً على ابن الرقيات».

على أن الدقة المنهجية في كتاب الرقام لم تحل دون وقوعه في بعض المآخذ القليلة، ومن ذلك أنه جعل نهاية الجزء الأول في آخر الثلث الثاني من الباب السادس، وكان من الأولىٰ أن ينتهي الجزء الأول في آخر الباب الخامس، فيكون في كل جزء خمسة أبواب كاملة، فإن لم يفعل ذلك كان من المنتظر أن يدخل الباب السادس كله في الجزء الأول. ولو أن الرقام نظر في قسمة الكتاب إلى تساوي الجزأين في عدد الأوراق لرأينا في ذلك مسوّغاً لما فعل، ولكننا نجد الجزء الأول يزيد على الجزء الثاني (١١) إحدى عشرة ورقة. ولو أن المؤلف أنهى الجزء الأول بنهاية الباب الخامس لتساوىٰ الجزءان في عدد الأبواب وعدد الأوراق. على أنه ربما كان تقسيم الكتاب إلى جزأيه من عمل النساخ. كما أنه ليس لنا أن نغالي فنخرج الرقام عن عصره، ونؤاخذه بمجاراة نظرائه الذين كانوا يقسمون كتبهم إلى أجزاء أو مجلدات لاعتبارات كثيرة ، لا تضبطها قاعدة مطردة.

ومن ذلك أيضاً أنه يذكر في ص ٧٣ أن«خبر الزبرقان والحطيئة قد كتبته في باب العفو عن الشعراء الهاجين للأشراف مستقصىً» ويؤكد وجود هذا الباب مرة أخرىٰ إذ يقول في ص ٢٠٠ : «خبر الفرزدق قد كتبته في باب العفو عن الشعراء الهاجين للأشراف». ولكننا لا نجد في الكتاب باباً بهذا العنوان، وإنما نجد أخباراً

(٢١) انظر ص ٤٢٣

عن هرب الفرزدق (٢٢) في «باب العفو عن الهراب والمنفيين وردهم إلى أوطانهم» بينما لا نجد خبراً آخر عن الزبرقان والحطيئة في سائر أبواب الكتاب.

ومن ذلك أيضاً أنه ذكر في ص ٣٩٤ خبراً عن شفاعة علقمة الفحل بأخيه شأس لدى النعمان، ثم انتقل إلى الحديث عن يوم عين أباغ الذي أسر فيه شأس، ثم تحدث عن شفاعة النابغة بقومه ليعود مرة أخرىٰ في ص ٤٠٣ إلى الحديث مرة أخرىٰ عن شفاعة علقمة بأخيه في خبر يختلف عن الخبر الأول.

جـ ـ قيمة الكتاب:

لعلنا لا نغالي إذا قلنا: إن كتاب «العفو والاعتذار» كنز ثمين من كنوز تراثنا الأدبي الذي ما يزال جانب كبير منه مضيعاً أو مهملاً في زوايا المكتبات الحافلة بالمخطوطات. وإن الدراسة المتأنية لهذا الكتاب تظهر أنه ذو قيمة لغوية واجتماعية وأدبية، نجمل الحديث عنها فيما يلي:

١ ـ القيمة اللغوية:

بدأ الرقام البصري كتابه بباب «العفو والاعتذار»، وأسهب في عرض المادة اللغوية لهذين اللفظين، مدللاً على ثقافة لغوية واسعة، وإلمام بالشواهد المتنوعة من آيات قرآنية وأحاديث نبوية وأمثال سائرة وأبيات شعرية، وهو يقلب المعاني المختلفة للعفو والاعتذار، ويستوفي مشتقاتهما بما لا يترك زيادة لمستزيد.

(٢٢) انظر ص ٣٢٣

وهو لا يكاد ينقل عن أحد من أئمة اللغة استقلالاً بشخصيته ، وثقة بنفسه، بل إنه يجتهد أحياناً بإبداء رأيه، كقوله(٢٣): «والعذرة: عذرة الجوزاء .. سميت عذرة ـ فيما أرىٰ ـ لأنها آخر كواكب». وكقوله(٢٤): «والأفصح في هذا أن يقال: (عذيري من فلان) كذا جاءت هذه اللفظة، وسمعت عن فصحاء العرب، لا كما يقول من لا معرفة له باللغة:(من عذيري من فلان)(٢٥) و(يا من عذيري منه)».

وليست هذه المقدرة اللغوية والاعتداد بها أمراً مستغرباً، فالرقام البصري صاحب ابن دريد اللغوي الكبير، مؤلف كتاب «الجمهرة في اللغة».

ولعل هذه النزعة اللغوية هي التي كانت تدفع الرقام إلى أن يشرح بعض الألفاظ في تضاعيف كتابه(٢٦).

٢ ـ القيمة الاجتماعية:

تتضح القيمة الاجتماعية للكتاب فيما يقدمه لنا خلال أخباره المتنوعة من صورة صادقة عن الشخصية العربية، التي تبدو ذات ملامح واحدة على اختلاف الزمان والمكان. فالعربي ذو مزاج عاطفي، يصل به غالباً إلى

---

(٢٣) انظر ص ٣٩

(٢٤) انظر ص ٤٤

(٢٥) وفي اللسان ٢٢٢/٦: «يقال: من عذيري من فلان، أي : من نصيري» .

(٢٦) انظر على سبيل المثال: ص ٣٩، ٢١١، ٤٢٢، ٤٢٣، ٥٢٢

التطرف نحو واحد من قطبين متضادين، فهو يبطش أشد البطش حين يستبد به الغضب، حتى لا يبالي بما يكون وراء غضبه وبطشه. وهو فجأة ينسىٰ غضبه وحقده عندما تـــهزه الكلمة الطيبة أو الأبيات القلائل من الشعر، يقولها الجاني في ساعة الموت، فينال بها عفو صاحب السلطة، بل قد ينال عطاءه، أو يصبح من صنائعه وخلصائه.

والكتاب من بعد ذلك معرض لكثير من العادات الاجتماعية في معاملة ذوي السلطان للرعية، وفي عادات القوم في خصوماتهم ومعاتباتهم، وماكانوا يتطيرون به ويتفاءلون، وكيف كانوا يتخاطبون في بساطة ما نزال نراها في بعض المجتمعات العربية التي لم تفسدها رياح التغريب الوافدة. وما أجمل قول الرقام البصري، وهو يتحدث عن سلم بن قتيبة الهناء الذي كان بدوياً قحاً لا يعرف تقاليد البلاط العباسي(٢٧): «فلما بايع سلم بن قتيبة، ومسح يده على يد عيسىٰ انصرف عنه، ولم يقبلها، وكان الناس في تلك الأيام لا يعرفون تقبيل اليد، إنما هو شيء جاء به أهل خراسان، فاستنكر ذلك عيسىٰ بن علي».

ولعلنا نستطيع أن نفهم كثيراً من الحوادث التاريخية فهماً صحيحاً، وأن نعرف بواعثها وأسبابها حين نقرأ مثل هذا الكتاب الذي تدور معظم أخباره في بلاطات الخلفاء ومجالس الأمراء والأشراف، حيث نرىٰ صور المجتمع السياسي منذ الخلافة الراشدة إلىٰ عهد قريب من زمن المؤلف ذاته.

وإن إلحاح الرقام على أخبار شخصيات تاريخية بعينها، يفسح المجال

---

(٢٧) انظر ص ١٦٨

لفهم هذه الشخصيات، وإدراك الأبعاد الحقيقية لشخصيتها، وتيسير دراستها دراسة نفسية طريفة. ولعل أبرز هذه الشخصيات في كتابنا هو الحجاج بن يوسف الثقفي، فهذا الرجل الجبار الذي كانت الفرائص ترتعد لمجرد الوقوف بين يديه كان يرجف فرقاً من رسالة عاتبة غاضبة تأتيه من عبدالملك بن مروان(٢٨)، وهذا الرجل الذي كأنما قد قلبه من صخر، حتى لا يمل من تقتيل المئات من المسلمين بين يديه، تراه أحياناً يعفو لمجرد أنه استحيا من كلمة قالها له أحد الأسرىٰ بعد أن سبه الحجاج، وهي قوله(٢٩): «بئس ما أدَّبك به أهلُك ياحجّاج، أبعدَ الموت غايةٌ أستبقيكَ لها؟ ما الذي آمنَكَ من أن أراجعك بمثل ما ابتدأتني به من السّبّ؟».

وقل مثل ذلك عن الفرزدق الذي كان يتهدد الملوك والسوقة بهجائه، ولا يبالي أن يتناول الخلفاء والولاة بلسانه السليط غضباً لنفسه ومحمية لعصبيته التميمية!.. ولكنه حين يقف أمام مالك بن المنذر بن الجارود، ويرىٰ السيف قد انتضي لقتله، تأخذه الرعدة أيما مأخذ(٣٠)، وهو حين يهرب من زياد بن أبيه يصور خوفه منه في مناجاة رائعة للأسد الذي لقيه(٣١)، وهو يضرب في البيداء هرباً من زياد.

٣ ـ القيمة الأدبية:

وهي القيمة الكبرىٰ لهذا الكتاب، إذ جمع بين دفتيه جل ما قيل في

---

(٢٨) انظر ص ٥٨٤
(٢٩) انظر ص٥٦٠
(٣٠) انظر ص ١٩٩
(٣١) انظر ص ٣٢٩

«العفو والاعتذار» من نصوص النثر و الشعر، يمتد بعضها إلى قلب الجاهلية، وينحدر بعضها إلى ما يقارب زمن المؤلف ذاته.

وإن دراسة هذه النصوص دراسة تحليلية متأنية كفيلة بتغيير الأحكام التقليدية التي حددت خصائص «فن الاعتذاريات» بما قاله عدي بن زيد العبادي والنابغة الذبياني، بل إن النصوص النثرية التي يحفل بها الكتاب تجعل « فن الاعتذار » غير قاصر على الشعر فقط.

وتدور كثرة من الأخبار حول شاعر واحد، مما يفسح المجال لمعرفة جانب من حياته، وإدراك دخيلة نفسه، وقد تعزز هذه الأخبار أو تصحح ما صدر عليه من أحكام نقدية سابقة.ومن الشعراء الذين نالوا حظاً كبيراً في الكتاب الأخطل(٣٢) والفرزدق(٣٣)وابن الرقيات(٣٤).

كذلك لا ننسى أن الثروة الشعرية التي يحفل بها الكتاب، يعود جانب منها إلى شعراء ضاعت دواوينهم،ومن هذه الثروة جانب آخر لم يرد في دواوين الشعراء التي وصلت إلينا.

وأخيراً فإن أسلوب الرقام البصري يعزز القيمة الأدبية لكتابه، فهو أسلوب عالي الطبقة، يجمع بين الرصانة والوضوح، وينأىٰ عن الصنعة والتكلف على الرغم من أن أسلوب ابن العميد أصبح مثلاً لكثير من الكتاب المعاصرين للرقام البصري.

---

(٣٢) انظر أخبار الأخطل من ص ٦٠ ـ ٧٠

(٣٣) انظر أخبار الفرزدق في ص ١٩٨، ١٩٩، ثم من ص ٣١٩ ـ ٣٥٣

(٣٤) انظر أخبار عبيدالله بن قيس الرقيات من ص ٤٠٦ ـ ٤٢٣

٤ ـ توثيق نسبة الكتاب

قدمنا أن كتب التراجم والطبقات ضنت على الرقام البصري بما يستحق من الاهتمام، واكتفت بذكر اسمه ولقبه وبلده وصلته بابن دريد، ولكنها لم تذكر شيئاً من أخباره أو مؤلفاته، ولعل شهرة ابن دريد غطت على تلاميذه، فأهملت ذكرهم، إلا أبا علي القالي الذي لقي من التقدير والشهرة في الأندلس ما لم يلقه في المشرق.

وعلى ذلك فنحن لا نملك ما نوثق به نسبة الكتاب إلى الرقام البصري إلا ما نستظهره من مخطوطة الكتاب ذاته. فقد كتب على صفحة العنوان: «الجزء الأول من كتاب العفو والاعتذار تأليف أبي الحسن محمد بن محمد بن عمران البصري» ثم علق تحت العنوان بحروف صغيرة:«ويليه الجزء الثاني وبه تم الكتاب».

أما عنوان الجزء الثاني فهو:«الجزء الثاني من كتاب العفو والاعتذار تأليف أبي الحسن محمد بن محمد بن عمران البصري».

ثم يتردد اسم الرقام البصري أو كنيته في تضاعيف الكتاب في أماكن متعددة، وهذا ما يؤكد نسبة الكتاب إليه، وذلك كما يلي:

ص ٢٧ :«قال الشيخ أبو الحسن محمد بن محمد بن عمران البصري».
ص ٩٤ :«قال أبو الحسن».
ص١٠٤ :«قال أبو الحسن».
ص١١٢ :«قال أبو الحسن».

ص ١٦٧:«قال أبو الحسن».
ص ١٧٣:«حدّثني أبو الحسن محمد بن محمد بن عمران بن موسىٰ البصري العبدي».
ص ٢٤١:«قال محمد بن محمد بن عمران البصري».
ص ٢٨٩:«حدثنا أبو الحسن».
ص ٤٤٣ : « قال أبو الحسن».

ومما يوثق نسبة الكتاب إلى الرقّام البصري ما نستظهره من دراسة الأسانيد في الكتاب، فالرقام البصري ـ كما قدمنا ـ يروي عن العلماء والرواة الذين عاصرهم، وعلى رأسهم أستاذه ابن دريد.

وليس يقدح في نسبة الكتاب إلى صاحبه ألا يذكر في كتب التراجم وفهارس المصنفين، فقد رأينا كثيراً من الكتب تثبت نسبتها إلى مؤلفيها مع إغفالها فيما ذكر لهم من مؤلفات.

وكأن للكتب حظوظاً كحظوظ الناس، ولعل حرفة الأدب أدركت الرقام البصري، فأهملت ذكره، ثم امتدّت من المؤلف إلى كتابه.

٥ ـ مخطوطة الكتاب

لم تبق الأيام من نسخ «العفو والاعتذار» إلا على هذه النسخة الفريدة. وقد وصلتني مصوّرتها من الصديق الكريم الدكتور فؤاد سزكين. ثم أتيح لي الاطلاع علىٰ أصلها المخطوط في مكتبة برلين برقم (٥٤١٦).

ويعود تاريخ هذه النسخة إلى القرن الخامس الهجري، نستظهر ذلك من دراسة خطها وطريقة كتابتها ونوع ورقها، ثم من التمليكات المثبتة على صفحة العنوان، وهي تتردد بين التآريخ التالية: سنة ٤٣٠ ـ ٤٧٠ ـ ٤٩٢ هـ .

وقد جاءت المخطوطة في جزأين كاملين يضمهما مجلد واحد. وبلغ عدد أوراقها (٢٨٦) ورقة، في كل ورقة عشرة أسطر، ومسطرتها ٥ر٢٢ سم × ٢٥ر١٦. وورقها من النوع الجيد الصقيل، ومع ذلك فقد أثرت الرطوبة في بعض الأوراق مما أدىٰ إلى خرم جزء كبير من وسط صفحة العنوان، ذهب بنص تمليك قديم لم تبق منه إلا حروف يسيرة، (انظر اللوحة رقم١). كما أدت الرطوبة إلى انتشار الحبر واحتراقه في كثير من الأوراق، بل إنها كادت أن تؤدي على مر الزمن إلى امحاء بعض الألفاظ والعبارات من بعض الصفحات دون أن يصل ذلك إلى خرم الورقة. ثم إن يداً صناعاً استدركت ذلك العيب بإلصاق وريقات أثبتت بعناية فائقة، وكتبت عليها الألفاظ والعبارات التي كانت آيلة إلى الامحاء بقلم مغاير لقلم الناسخ (انظر اللوحة رقم ٥).

وقد أثبت الناسخ عنوان الكتاب بقلمه كما يلي:«الجزء الأول من كتاب العفو والاعتذار تأليف أبي الحسن محمد بن محمد بن عمران البصري». وينتهي هذا الجزء في الورقة (١٤٨) بالعبارة التالية: «تم الجزء بحمد الله تعالىٰ وحسن توفيقه، يتلوه في الذي يليه إن شاء الله تعالىٰ: (حدثني ابن دريد عن أبي حاتم..)». ويبدأ الجزء الثاني بهذه العبارة إلى أن ينتهي بالعبارة التالية: «تم الكتاب، وبتمامه تم الجزء الثاني من كتاب العفو والاعتذار بمشيئة الله تعالىٰ، والحمد لله وحده».

أما تمليكات الكتاب فقد أثبت أولها في أعلىٰ يمين الورقة الأولىٰ فوق

العنوان كما يلي: «ملك أحقر عيال الله أسد الله عُفيَ عنه» ثم طمس اسم المالك المكتوب تحت هذه العبارة، وأثبت على يمينها بالأرقام القديمة بقلم غليظ رقم (٤٩٢).وكتب في أعلىٰ يسار الورقة بقلم آخر:«الحمد لله الذي لا تتم الصالحات إلا به. من كتب علي بن عثمان العكاري عفا الله عنهما آمين وعن جميع المسلمين. رحم عبداً تكلم فغنم أو سكت فسلم، وحسبنا الله ونعم الوكيل». وكتب تحت هذه العبارات بقلم آخر التمليك التالي: «في نوبة الفقير إلى الله تعالى يوسف بن أحمد بن أبي الحسن الكو؟ عفا الله عنه» وقد خرمت بعض الحروف من هذا التمليك، وتلاه على وريقة ملصقة فوق التمليك القديم المخروم وبخط واضح في أسطر مائلة التمليك التالي: «في نوبة العبد الفقير أحمد ابن البدر بن محمد بن أويس المعري، عفا الله عنهم وعن جميع المسلمين آ.» والحرف الأخير رمز لكلمة: آمين. وكتب بجانب الحرف بقلم أغلظ تاريخ التمليك وهو سنة (٤٣٠). ويلي ذلك تمليك آخر نصه: «انتقل من فضل الملك القدير إلى نوبة الفقير أحمد بن أبي الوفاء بن مفلح الحنبلي،عامله الله بلطفه الخفي» وأثبت بجانبها تاريخ التمليك وهو «سنة ٤٧٠».

وقد أثبت التمليكان الأخيران على وريقة ألصقت تحت عنوان الكتاب، وفوق الخرم الذي أصاب صفحة العنوان كما قدمنا (انظر اللوحةرقم١). وغطت هذه اللصيقة على تعليقات أخرىٰ، فلم تبق منها إلا ألفاظ مطموسة بفعل الرطوبة، ولم أتبين منها إلا ما جاء في السطر الأخير، وهو «على سيدنا محمد».

أما صفحة العنوان في الجزء الثاني فقد كتب فيها على نسق الجزء الأول: «الجزء الثاني من كتاب العفو والاعتذار تأليف أبي الحسن محمد بن محمد بن عمران البصري». وأثبت في الزاوية اليسرىٰ من أعلى الصفحة ما يلي: «الحمد

لله الذي هو رجاؤنا. من كتب علي بن عثمان العكاري عفا الله عنهما آمين وعن جميع المسلمين» وقد تقدم هذا التمليك بعبارة مخالفة على صفحة العنوان في الجزء الأول (انظر اللوحة رقم٢).

وقد تلت الورقة الأخيرة من الكتاب ورقة أخرىٰ كتبت عليها كلمات مما يكتبه النساخ لتجريب أقلامهم، وجاء في أعلىٰ هذه الورقة من جهة اليمين ستة أبيات من الغزل، وهي قوله:

وأصبحَ من ليلىٰ على قرب دارهـــا ... بعيداًوقِدْماً كان في القرب دانيـــا
وَأوهتْ قُوىٰ الآمال منه بصدِّهـــا ... فأضحىٰ على الوجد المبرِّح طـــاويا
فياليتها معَ هجرها وصدودهـــــا ... وإعراضها أبْقَتْ عليه الأمانيـــــا
نخاف انقضاءَالعمر دونَ لقـــائكُمْ ... وفي النفس حاجاتٌ إليكم كما هـيا
وخبَّرْتُماني أن تَيماءَ مـــــــنزلٌ ... لليلىٰ إذاماالصيفُ ألقىٰ المراســـيا
فهذي شهورُالصَّيف عناقدانقضَـتْ ... فما للنَوىٰ ترمي بليلىٰ المرامـــــيا

وهذه الأبيات من الشعر المنسوب لمجنون ليلىٰ، والبيتان الأخيران منها في ديوانه (صفحة ٢٩٣).

ويتلو الأبيات السابقة بيتان آخران كتبا بقلم مغاير، وهما قوله:

إن السَلام وإنْ أهداه صـــــاحبُه ... وزاده رونقاً منه وتحســـــــينا
لا يبلغُ العُشرَ من قَوْلٍ تبلّغـــــهُ ... أذنَ الأحبّة أفواهُ المحـــــــبينا

وقد أثبت فوق لفظ «صاحبه» لفظ «حامله»، كما أثبت تحت لفظ «أذن» لفظ «سمع» إشارة إلى رواية أخرىٰ.

وعلى يسار الأبيات الستة كتبت عبارة طريفة بخط قليل الوضوح، وهي:«حلفت في سابع عشر من شوال سنة أربعمائة؟ فسبعين؟ بالطلاق للثلاث أني ما أزن عن أم عمر درهماً». وأثبت تحت هذه العبارة عبارة أخرىٰ بخط رديء، وهي قوله: «ابتاع جبريل المنادي. تم البيع له إسحاق بن... فوق دكان عمر العطار».

وكتب في أسفل هذه الورقة بسطر مائل وخط غير مقروء :«برسم الخزانة الكتبية العالية المولوية القاضوية السعيدية المالكية المحروسية أعلىٰ اللّٰهُ مَنْ.. شأنهَا ووضعَ مَنْ شانهَا». (انظر اللوحة رقم٧) واللفظة الممحوة من العبارة الأخيرة هي على المرجح «رَفَعَ» ومن الواضح أن هذه الألقاب المتتالية شاعت في العصر المملوكي كما نستظهر ذلك من كتاب صبح الأعشىٰ للقلقشندي.

وقد كتبت المخطوطة بجزأيها كليهما بقلم واحد، وبخط نسخ قديم واضح، وضبطت بالشكل ضبطاً كاملاً، وإن اعتوره كثير من الأخطاء، مع إهمال النقط والوقوع في التصحيف والتحريف أحياناً.

أما طريقة الكتابة فإن الناسخ يضع بين الفقرات والمقاطع إشارة فاصلة على هيئة دائرة منقوطة شبه مغلقة. وقد دبّج عناوين الأبواب بالمداد الأحمر، بما في ذلك الجزء الأول من خاتمة الكتاب، وهي قوله: «تم الكتاب وبتمامه» ثم أكمل عبارة الخاتمة بالمداد الأسود.

وهو يكتب الألف المقصورة في الفعل الرباعي ألفاً ممدودة مثل «عافا الله فلاناً» و«من أبدا صفحته»، ويضع على الراء علامة الإهمال، ويثبت تحت الحاء

المهملة غير المتطرفة حاء صغيرة، ويثبت الألف مع «ما» الاستفهامية المتصلة بحرف الجر، مثل «فبما أوصيتها؟». وهو يحذف غالباً الألف إذا جاءت ثانية في اسم العلم مثال «مالك وخالد» فيكتبها «ملك وخلد»، ولكنه يثبت هذه الألف أحياناً في مثل «يا مالك». ويحذف الألف من مثل «آلاف» فيكتب «عشرة ألف دينار». ويحذف الهمزة من كل ما ينتهي بالألف التأنيث الممدودة، مثل «سماء وصفاء» فيكتبها «سما وصفا»، وهو يسهل همزة الجمع دائماً إلى ياء في مثل «لقائح» فيكتبها «لقايح».

وهناك أخيراً اضطراب في تسلسل الكتاب، وهو من تخليط الناسخ وسهوه، فقد أثبت في الورقة (٢١١ أ) جزءاً من خبر، نجد أوله في الورقة (٢١١ أ) . بينما نجد الخبر الذي مكانه هنا مؤخراً إلى الورقة (٢٧٦أ). وقد أدركت هذا التخليط من سياقة الخبر، وصوّبته مع المحافظة على إثبات الترقيم كما جاء في الأصل المخطوط

٥ ـ منهج التحقيق

١ ـ عمدت إلى إثبات النص عن النسخة الخطية الفريدة، واجتهدت في تقويمه، وضبطه ضبطاً صحيحاً على قدر الطاقة، مع المحافظة على عناوين الأبواب كما وردت في الأصل.

٢ ـ أبحت لنفسي أن أزيد على النص ما لا يستقيم الكلام إلا به مما أسقطه الناسخ، ووقعت عليه في مصادر أخرى. وقد أثبت هذه الزيادة داخل معكوفتين.

٣ ـ عنيت بتخريج الآيات والأحاديث والأمثال السائرة، كما عنيت بتخريج الشعر بالرجوع إلى الدواوين وكتب الاختيارات وأمهات الكتب الأدبية

واللغوية، وأثبت اختلاف الروايات، وشرحت ما ينبغي شرحه من الألفاظ الغريبة، وربما تجاوزت ذلك إلى شرح الأبيات الغامضة. كذلك شرحت الغريب في النص النثري مما رأيت حاجة المثقف الوسط تدعو إلى شرحه.

٤ ـ ترجمت للأعلام المذكورين في الكتاب مغفلاً المشاهير الذين رأيت الترجمة لهم ضرباً من التزيّد لا مسوّغ له، كما حددت الأماكن التي لابد من تحديدها.

٥ ـ أشرت إلى المصادر التي أوردت بعض الأخبار مما جاء في كتاب العفو والاعتذار، وبينت مدىٰ الاتفاق في السند والعبارة.

٦ ـ أثبت في هوامش الصفحات أرقام الأوراق كما أثبتت على المخطوطة، مشيراً إلى وجه الورقة بالحرف (أ) وإلى ظهرها بالحرف (ب). ووضعت خطاً مائلاً/ للإشارة إلى نهاية كل صفحة من المخطوطة.

وبعد، فإنه ليسعدني أن أتقدم بالشكر الجزيل إلى الصديق الكريم الأستاذ الدكتور فؤاد سزكين، الذي رغب إليّ في تحقيق هذا الكتاب، وأهداني نسخته المصورة، قبل أن تتاح لي زيارة مكتبة برلين للاطلاع على الأصل المخطوط، كما أجزل الشكر لأستاذي العلامة المحقق محمود شاكر الذي اطلع على الكتاب قبل تقديمه إلى المطبعة، فأفادني من علمه الغزير حروفاً أثبتها في مكانها معزوة إليه.

والحمد لله على نعمائه، والصلاة والسلام على محمد وآله، ومن تبع دعوته إلى يوم الدين.

الرياض غرة جمادىٰ الآخرة سنة ١٤٠١هـ
٤ نيسان سنة ١٩٨١م

د. عبدالقدوس أبو صالح

نماذج من الأصل المخطوط

obeikandl.com